الآراء الـــواردة في الصفحة تعبر عن وجهات نظر كتابها ، وقد لاتتفق بالضرورة مع وجهة نظر الجريدة

مـوت المركز.. قـراءة فـي انهيـار الدولـة والمركـز الثقافـي التقليدي

يبدو لي ان الثقافة العربية تواصل بامتياز لعبة إنتاج خطاب المراكز، عبر إنتاج انساق السلطة والفحولة والمهيمن و الجنس والعقائد والشخصانية والعمومية، تلك التي تتماهى في كلياتها مع فكرة السلطة/الأب والمقدس، مثلما تجسد بكليانيتها نموذج البطولة المرجعية التي تجسدها صورة مثقف الديوان القديم بمرجعياته الوثائقية المكرسة ونمط سلطته في التأويل والمراقبة، اذ هي تعيد انتاجه مع كل أزمة تواجهها السلطة، وكل ازمة تواجهها الانتلجنسيا في سياق انهيار مفهومها النخبوي و شعاراتها الفضفاضة، كما تعيده أيضا مع كل المنعطفات المعقدة التي تواجه المثقف المطرود منهجيا ووجوديا من حاضنتها الابوية، وكأن بقاء هذه المراكز هو معادل موضوعي لبقاء السلطة بكل مستوياتها ومرجعيتها، مثلما هو بقاء البنية التعويضية التي تؤلّه شرعنة تلك السلطة، وربما هي التي تجعل المثقف العالق لصق لعبة تبادل المراكز قيد التذكر والحضور والخنوع والتوظيف.

علي حسن الفواز

هذه المراكز الموجهّة والباثّة ! مازلت ماثلة للعيان في يومياتنا و عبر تمظهرات نصية ووظائفية وسلوكية ونكوصية، وعبر مواقف تفرض شروطها في آليات إنتاج البنية الثقافية/ السياسية للعديد من الجماعات، وعبر استعارة تداول الكثير من التوليدات المفاهيمية التي تكرر إنتاج النموذج المركزي للمثقف صاحب الاوهام الكبرى وصاحب السرديات الكبرى، اذ تتمثل عبر محاولات ايهاماته تلك، صور ومعاني تتجوهر فيها الكثير من(اللاوعي المهمل) للشفرات الثقافوية لهيمنة الأب الرمزي /الشمولي والعراب، البطل الخارق الذي غيبت صورته الرسولية القديمة والخسارات التاريخية والسياسية لنموذج السلطة المركزية، وانهيار النموذج المركب لمثقف ديوانها، وللمثقف المضاد الذي كان يمثل صورته العيار، والباطني(علي الزيبق، علي بن يقطين) فضلا عن تفكك المفهوم الأخلاقي لصورة البطولة المثيولوجية المحكومة بنموذج المثقف والفقيه والعارف والصوفي وسط عالم محكوم بنوع من(الناسوت) الرمزي الطاغي.

انهيار وتفكك هذا النموذج ارتبط من جهة اخرى بالانتاج المفرط لثقافات الثلل/ الجماعات التي تمردت على نموذج المركز القديم للدولة والثقافة الشمولية، والتي أنتجت لها أشكالا ثقافوية تماهت كثيرا مع ثقافات/هويات تلك الجماعات، ناهيك عن استشراء ثقافات الإشاعة التي برعت في صناعتها السلطة ذاتها، وكذلك ثقافات الاستعراض التي امتثلت لأنماط من ثقافات قديمة لمثقف الجماعة، او فقيه الجماعة، والتي كرستها عوامل ميتا ثقافية، اذ تم ترحيلها من نسق الايدولوجيا ومؤسساتها وظواهرها الحزبوية والسياسية والمرجعية الى الفعاليات الثقافية لتكون نوعا من استعادة الإيهام بمرجعية السلطة المراقبة بمستوياتها الدينية والاجتماعية. ولعل اي مراقب للكارزما التي لم يزل غبارها عائما فوق البعض من سطوح الثقافية العربية سيرى الكثير من تمظهرات ابوة هذه الظاهرة السسيوثقافية عبر حضور علاماتها من خلال وجود مراكز، كثيرا ما تستعديها السلطة السياسية بمواجهة مراكز جديدة اكثر ثورية وأكثر تمردا، ومن خلال أنماط الخطاب الطاعنة في كتابة واستعراض نصوص الوصايا، مثلما نراها في سايكولوجيا الاحتفال التي كثيرا ما تدور حلقاتها حول النموذج/المركز، والطبيعة المثيرة لكارزمتيته في التاريخ والمتحف، وصولا إلى غواية ما يسمى بالجائزة الثقافية العربية التي مازلت في بعض حلقاتها تتماهي مع استعادة هذا النموذج الأبوي، والذي تتكرس صورته على وفق إنتاج نموذجها العربي للذات المركزية، تلك التي تماثل أيضاً تكرار إنتاج المزيد من (الايقونات) الثقافية، اذ هي نوع من تماثل الى حد كبير فكرة الاحتفاظ برمزية الأب العائلي، والأب السياسي والأب الديني، والتي لا يملك العقل العربي اي هامش نقدي وتعويضي لتفكيك عقد مهيمناتها، خاصة في موضوعة تفكيك السلطة والمركز والحزب التقليدي، فضلا عن وجود فوبيا إنتاج المتحف الثقافي الرمزي، واجتراح النسق القادر على استيعاب مفهوم التوليد العائلي الرمزي بعيدا عن سلطة الأب المقدس الحاضر بعصاه الغليظة وصوته الأجش ورقابته الصارمة على أوقاتنا الذهبية وشغبنا وخروجنا عن الطاعة باتجاه جهاتنا الشخصية المريبة.

هذه الظواهر تعدّ من اخطر ما تواجهه ثقافتنا العربية إزاء تحديات المعاصرة لأنها مازلت تنتج السياسي الانقلابي، والسياسي السلطوي الذي لا يؤمن بالتنازل عن الكرسي والعصا والصورة، مثلما تنتج الأب الذي يهمن جنسويا على كل نساء العائلة، فضلا عن إنتاجها لصورة المثقف العراب، الوظائفي، بنماذجه القهرية والسلطوية، وحتى بنخبويته وعقدها الاجتماعية والرمزية..

وجود هذه الظواهر تعكس أيضاً الفشل في تجاوز نموذج المثقف القومي التقليدي، وفقدان القدرة على استيعاب الكثير من معطيات التغيير وتبدل سياقات الحوار والحرب وتبادل المواقع، مثلما تعكس أيضاً فشل نموذج المثقف اليساري في صياغة نموذج يدرك تغايرات الصراع والتعاطي مع مفاهيم مثل الدولة والحرية والديمقراطية والاشتراكية ورأس المال والصراع الطبقي وغيرها.

المثقف/ نموذج الصورة والظل..

هذا المثقف فقد الكثير من توصيفه وامتيازه في إطار تنافر العلاقات السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وانهيار انساق الدول القديمة، وكذلك انهيار شموليات النظر الى الايديولوجيا والقوة والثورة، خاصة في اطار توظيف النظر اليها من خلال فاعليات النظرية السياسية والثقافية، فضلا عن الفشل المريع لإنتاج المثقف التعويضي الكولاجي (الانتهازي) في التعبير عن التماهي مع الصور المتعددة القرينة بطبيعة وخطورة هذه التحولات، اذ ظل هذا النموذج عند دوره الاستلابي الذي يشبه صياد الفرائس. ومن اخطر تمظهرات هذا التحول هو بروز ظاهرة(المثقف الديني) الذي بات جزءا من ظاهرة اجتماعية ضاغطة، وجزءا من نسق سسيولوجي ي يؤسس مرجعياته في ضوء استعادة النص عبر نص اخر هوالنص الفقهي، والنص الاجتهادي، لكن خطورة هذا المثقف خاصة في سياق نموذجه السلفي هو إعادة أنتاج نموذج المركز الطارد، المركز القمعي عبر نص الفتوى، ونص التكفير.

نموذج هذا المثقف تحول من سيرورة ثقافية قابلة للقراءة المركبة منذ بدء التحولات في وعي النص والاجتهاد في القرون الإسلامية الأولى وصولا إلى ظاهرة النص الذي سيّس النص الديني(نموذج الأخوان المسلمين) الى سيرورة سياسية أنتجت مراكز ومؤوسسات وحركات مثل الدولة السعودية وحركة طالبان والقاعدة، وبالتالي فان هذا الازياح العاصف في مفهوم السسيودينية أصبح هو الظاهرة الاخطر في انتاج المراكز الشمولية التي تهدد الدولة المدنية والحداثة والديمقراطية والتنمية البشرية. ومن هنا نجد ان انهيار نموذج المثقف التقليدي انعكس على تمظهرات الثقافة ذاتها، خاصة وان معطيات الواقع فقدت الكثير من توهجها مع انهيار المدينة وانهيار الدولة ودخولهما مرحلة الخنوع الى أنماط من السلطات الخارجية(نموذج السلطة البويهية، نموذج السلطة السلجوقية، نموذج سلطات الخروف الأسود والخروف الأبيض وصولا الى النموذج الغرائبي للسلطة العثمانية)

ولعل أكثر المعطيات التي يمكن التعاطي معها في ضوء ذلك هو ما يتعلق بانهيار أي شكل للثقافات الوطنية باستثناء ثقافات محلية ذات افق طائفي، واحسبها جزءا من ثقافة مواجهة ومقاومة للنعف الذي مارسته السلطة العثمانية الطائفية أيضاً) مقابل عجز صعود أنماط مستحدثة للثقافات المدنية العربية خاصة في مراحل لاحقة مثل الثقافات الاستعادية والتحررية، وصولا الى الثقافات اليسارية والليبرالية وحتى الإسلامية الوسطية) في أنتاج مصدات تملك الأهلية المناهجية والإجرائية لمواجهة انهيارات المشروع الحضاري وخطابه الثقافي المؤسساتي والدولتي وحتى الاديولوجي، اذ ان هذا العجز تحول الى نكوص فشل في ضوئه نموذج الدولة الوطنية، والحراك الليبرالي، والحزب السياسي اليساري، ونماذج العلمنة السياسية، وبالتالي فشلت هذه المعطيات في حيازة مجالات ثقافوية(نظرية وإجرائية) لقراءة أزمة الإنسان في الحرية والدولة والفكر والتنمية،،فضلا عن ان هذه الثقافة المصطنعة لم تنتج لنا مدارس واتجاهات راسخة وفاعلة غير قابلة للمحو عند أول إعصار كوني !! وهذا ما يذكرنا بقول جلال الدين العطار(ان القش هو الذي يطير عند العاصفة)

الدولة الوطنية وملامح الخروج من المركز..

ان دخول الدولة الوطنية التقليدية مرحلة التشكل الاولي بدءا من اصطدامها بالطور الاحتلالي وانتهاء بصعود نموذج اخر للمركز السياسي والعسكري(صعود نموذج العسكرتاريا العراقية مع بكر صدقي وجعفر العسكري وياسين الهاشمي وغيرهم) وكذلك صعود نموذج(الافندي) السياسي المدني المتماهي مع النموذج الغربي بشكل خاص(بريطانيا وتجربة ادارة حزب العمال فيها) لكن هذا النموذج سرعان مافقد مركزيته وقوته مع طبيعة التعقيدات التي عاشتها البيئة السياسية وسوء ادارة العديد من الملفات الداخلية، وتراكم المشكلات الاقتصادية والسياسية والصراعية، وضعف البنية السياسية(الاحزاب، البرلمان، الملكية) والذي ادى بالتواتر الى انتاج نموذج مرعب لدولة التحرر الوطني المشوشة في نزعاتها الثورية/الانقلابية، ونمط مركزيتها العنفي، ناهيك عن مواقفها الانفعالية الإكراهية للآخر.

هذا النموذج الغرائبي للدولة/الثورة اسهم في تخريب أي تراكم للدولة القديمة على علاتها، اذ هو فقد خجل الدولة القديمة ومحرماتها/ نموذج مثل العراق وسوريا وليبيا وحتى مصر التي كانت محكومة بانظمة تؤطر مرجعياتها بشيء من الايهام بالمقدس. واجد ان انهيار نموذج دولة المركز القديم، والولادة القيصرية لدولة المركز الجديد(دولة الحزب، ودولة المعسكر) اسهمت في انتاج نموذج لدولة الاستبداد التي فرضت هيمنتها على كل مقادير المجتمع والثروات الوطنية، مثلما فرضت بالمقابل اشكالا قسرية من العنف الوطني، وهذا النموذج امتدت صورته مع مأسميناه بالموجة المشوهة للحركات الثورية القلقة في اغلب الدول العربية، لكنه بالمقابل اسهم في انتاج انماط اخرى للدولة خاصة في مرحلة الستينيات، خاصة نموذج الدولة العائمة التي لاهوية لها والتي تتمثل لصورة الدولة/ البنك التي تتحرك فيها روؤس الاموال والاستثمارات، لكنها غير فاعلة في انتاج نموذج للدولة القوية بالمعايير الاقتصادية والسياسية والعسكرية(نموذج الدولة الخليجية).

هذه التحولات/الانهيارات اسهمت خلال اكثر من ربع قرن في تفكيك الذاكرة الرومانسية لمفاهيم الدولة القديمة، ومفاهيم الثورة والمقاومة ودخول الفضاءات الثورية التقليدية مثل الفضاء الفلسطيني الصانع الاثير لهذه الذاكرة مرحلة الحرب الداخلية في اطار ايهامية فكرة الدولة الهامشية، انهيار نموذجها القديم، وبالتالي استقدم هذا الانهيار صعود طبائع اخرى للجماعة وليس الدولة او الثورة، والتي حملت هوية النموذج الديني(نموذج حماس) والنموذج الليبرالي غير المتجانس(فتح) مقابل انهيار كامل للانماط التقليدية الثورية التي كانت تمثلها الجبهة الشعبية، والجبهة الديمقراطية. .

موت المركز..انهيار الحوار الحضاري

ان ظهور ملامح عنفية لنموذج المركز الجديد، واستشراء انماط من الثقافات النكوصية في مرجعيات هذا النموذج، اقترنت بصعود قوى جديدة لاتؤمن بقيم الحوار الحضاري الثقافي مع العالم الغربي، اذ كشف هذا الاختلال في الحوار عن عجز في التواصل، وعجز في فرض اشكال ثقافوية لمفاهيم الحوار والاستشراق، مقابل فرضه لانماط اخرى من الصراع التي سقطت في ضوء تداعياتها وتمركز توجهاتها نموذج الايديولوجي النقي كما في الادبيات الماركسية والقومية، فضلا عن الصعود الحاد لانماط من الثقافات العنفية في الاطار العربي الاسلامي واستخدامها مفاهيم التكفير والارهاب والغاء الاخر، تلك التي تستبطن في لاوعيها نموذج(التحصن)من ايهام الغزو والخوف من الآخر، ناهيك عن الانهيار المريع لثقافة التنوير في المكان العربي رغم كل موجات(الحداثة العاتية) وضعف تأثيرها في فرض نموذجها الذي ظل للأسف استعلائيا واغترابيا، حيث ظل هذا النموذج مسكونا بالحاضنة الغربية وأنماط ثقافاتها ومصادر تمويلها وبنيتها المؤسساتية..

ان انعكاسات تدمير المشروع الثقافي في المكان العربي، ابتدأ مع تنامي التشوهات للثورات السياسية التي هشمت بنية الدولة، واصطناع نماذج حادة الطباع للمثقف الثوري، والمثقف الانقلابي، والمثقف الايديولوجي، وتكرس مع تحول هذه الثورات الى انماط للسلطة التي فرضت هيمناتها على المجتمعات التي تعاني أساساً من علل تاريخية في التنميات والثقافات والحاجات. ولعل تميز النموذج اللبناني الذي ظهرت ملامحه منذ أربعينيات القرن الماضي وهو المعروف بتلاوينه وتعدد محاوره تحت ايقاع عنف المراكز التي ينتجها المركز السلطوي العتيد والعنف الدولي، انعكس من خلال طبيعة البنية السياسية الهشة الفاقدة لمهيمنة المركز والتي اتاحت للهويات الاخرى التمركز في واجهات ثقافية، لكنها بالمقابل ظلت شعارات اكثر من كونها انساقا تملك القدرة على البقاء، واحسب هذه الهشاشة هي التي قادت فيما بعد الى صعود نموذج المراكز الاثنية المرعبة التي خاضت حروبا معقدة داخلية وخارجية اعادت لبنان الى المركز القديم.

...

كل هذا يؤشر ملامح انهياروفشل المشروع الخطاب الثقافي العربي التقليدي في التحديث، وانهيار وتشوه الإمكانات والخبرات القادرة على إعادة أنتاج أي مشروع يمكن ان يتجاوز هذه المحنة ..

فهل ثمة افق لتخليق مجال ثقافي يملك قدرة متجاوزة لإنتاج اطر فاعلة لثقافة التنوير ومنع تكرار حدوث الكوارث المعرفية والسياسية والاقتصادية؟ وهل ثمة نخب فاعلة قادرة على الشروع بتأسيس الثقافات الإجرائية تمهد لخلق تقاليد مجتمع ثقافي مدني يتحرر من عقدة الحكومات الثورية القديمة؟ وهل ثمة سعي جاد لاستقراء تاريخية هذا الانهيار باتجاه أنتاج مقدمات مشروع الدولة الحضارية/الثقافية التي تؤّمن شروط المواطنة وشروط القوى الاجتماعية لدعم توجهات هذه الدولة المفترضة ؟ ..

ان نموذج المركز في العقل الثقافي العربي(صانع الأزمات) وضعنا أمام مأزق إعادة أنتاج ما هو مضاد لهذا المركز او تفكيكه استجابة لمعطيات التغاير والانزياح المعقد في الثقافات والتحولات العميقة في البنيات الاقتصادية والسياسية والثقافية ..

ان هذا النموذج الذي كانت تجسده خطابات محمد حسنين هيكل وأنيس منصور في الصحافة ومطاع صفدي في الفكر ومحمد عابد الجابري في التاريخ الإسلامي ومحمود أمين العالم في النقد، وخير الدين حسيب وعبد العزيز الدوري في التاريخ القومي فضلا عن تاريخ طويل من نمطية الإنتاج الثقافي الشعري والقصصي والروائي.

أن إشكالية اللحظة العربية المعاصرة وأسئلتها كشفت حجم الأخطار التي يواجهها العقل العربي في آليات صراعه المعقدة، وتفكك الكثير من مفاهيمه إزاء معطيات حادة أفرزها الواقع الثقافي ما بعد مرحلة الثقافة القطبية وتداعيات الحرب الباردة وتداعيات ما بعد أحداث ١١/ أيلول/٢٠٠١.. اذ لم يجد العقل العربي الكثير من آلياته وتقنياته فاعلة في مواجهة الطوفان وخروج الآخر بقبائله وعوائله إلى رمي الجمرات على شياطيننا، فضلا انه لم يعش تحولات عميقة تناسب خطورة الانهيارات الكونية التي رافقت انهيار القطب السوفيتي وتصدع التابو الماركسي السياسي وغياب شكله في الدولة والمؤسسة والنظام المعرفي والتمويلي والجامعات التي كانت تخرج لنا سنويا آلاف الثوار والعاطلين. مقابل هذا انتج العقل العربي انماطا نكوصية هي جزء من سايكولوجيا التعويض أسهمت الى حد ما في تهيئة الارضية لما يسمى الان بثقافة العنف وإنتاج البطل الاشكالوي المعقد صاحب الحساسيات العالية ازاء أي حوار مع الاخر !! او أي شكل أجرائي لدولة معاصرة تقوم على اساس علمنة السياسة والإدارة والاقتصاد والعلاقات الشرعية والحقوق المدنية ..

ان الدولة الوطنية التقليدية تعيش أزمتها الأخيرة، والمثقف العربي التقليدي المشرعن لقلقه وخوفه وعقمه يعيش أزمة إنتاج أسئلة مغايرة في الحرية والدولة والمواطنة والحقوق والمجتمع المدني، اذ انه سيواجه مصيره وحيدا في العزلة والعطالة مقابل ولادات لم تكتمل بعد لنموذج ثقافي متمرد نافر لم يؤسس حضوره في المشهد المعتم المفتوح على احتمال السؤال والقوة والطوفان، حيث ان رهان وجود هذا المثقف هو رهين بوجود الدولة الجديدة الفاقدة لهيمنة المركز الغاشم ...ولكن تاريخ العدمية في الثقافة العربية ما بعد مرحلة حركات التحرر العربي من الاستعمار التقليدي مازال يضع أمامنا الكثير من المطبات التي يمكن أن تعدينا الى أشكال أخرى من الاحتلال، وربما ترهن نصها ووجودها مع وجود المراكز الكبرى التي تمارس الآن أقصى نوباتها في إرهاب الفكر وإرهاب الدولة وربما إرهاب الوعي النكوصي ....

ان هذا الإرهاب الوجودي ذي المركبات النفسية والسياسة يمثل في جوهره إرهاصا لموت المثقف ،،مثقف الدولة القديمة ، مثقف الاحتجاج القديم والمثقف العضوي القديم الذي مازال يؤمن بان إعادة أنتاج المركز والتماهي مع ثقافة الهرولة ستوصلنا إلى القمر.